المجلس الأعلى للثقافة

قصص قصيرة



اللمسات الأخيرة

بقلم

مصطفى عبد الشافى مصطفى

اللمسات الأخيرة

قصص قصيرة

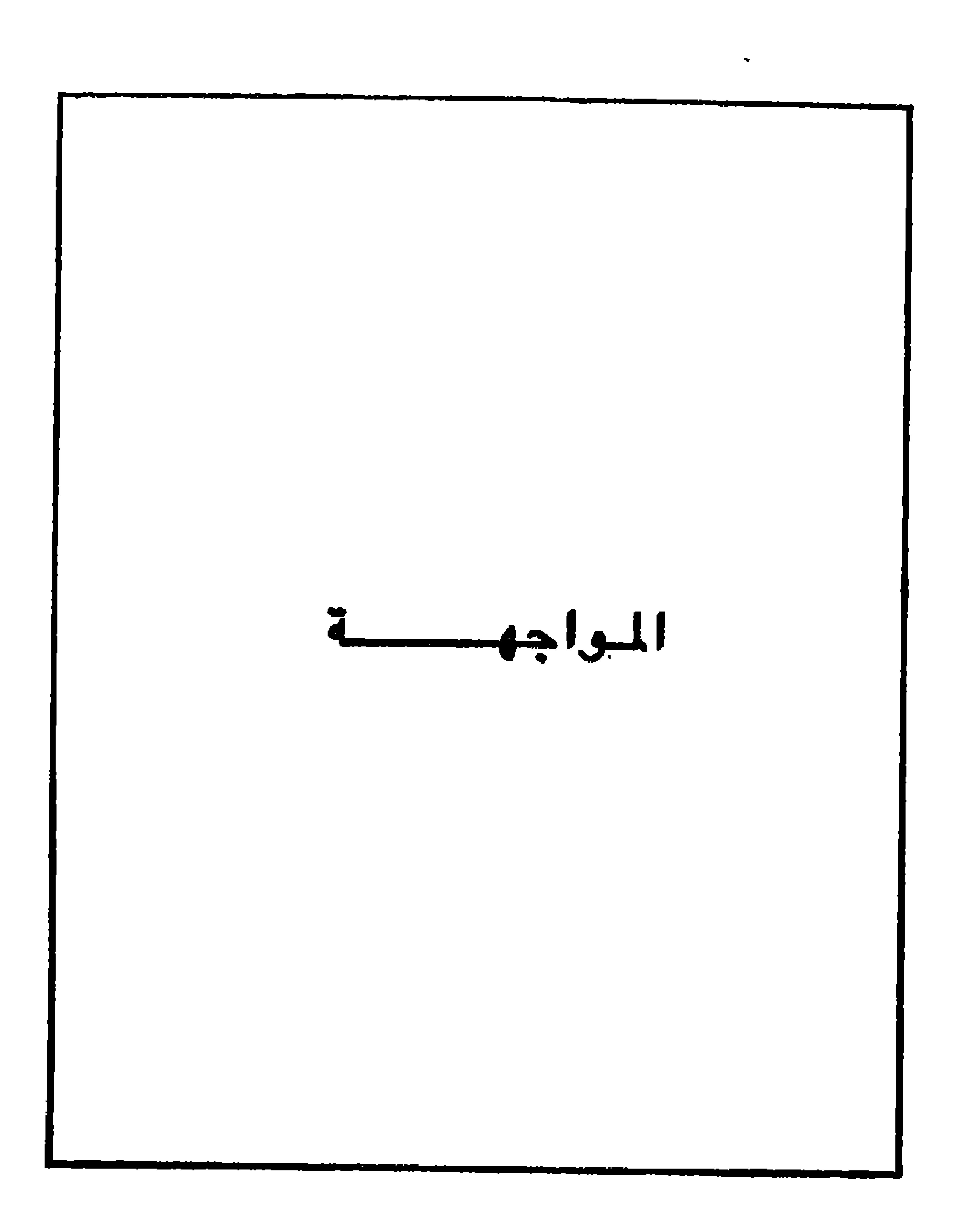
مصطفى عبد الشافى مصطفى

الإهـــــداء :

إلى أسرتى الصغيرة :

فاطمة ، آمنة ، خديجة

م٠٤٠م



المواجهة

المواجهة

تزداد العاصفة ، تقتلع الأشجار ، تنطفئ الأنوار ، يعم السكون ، أشباح تتحرك ، أنكمش داخل نفسي ، ألتصق بالجدران ، أنياب تتحرك ، أتكور في مكاني كي أشعر بالطمأنينة ، الصور تتعرى ، تنضم الأسنان على اللاشئ ، تزداد النفس كآبة وسط الظلام ، وتلين عظام لم يأكلها الدود بعد ، أنظر في المرآة المشروخة ، تتغير ملامح كثيرة والإحساس أصبح مفقودا .

أنظر حولي فأرى اللامبالاة مرسومة على الوجوه ، وللصمت حديث .

– هل للصمت حديث ؟

– نعم لغة .

– آه تقصد الرسم ؟

– لا لغة بيننا .

– إنني لا أفهمك .. تساؤلاتك كثيرة هذه الأيام .

– نعم لأنني مضطرب .

– لقد اقتلعت العواصف كل شئ .

– أعلم ذلك .

– أصبحنا عبيدا للأشياء .

– نعم .

– وكيف تتغير ؟

- عندما نتحرر .

- ومن أى شئ نتحرر ؟

- نتحرر من أنفسنا ، نتخلص من شبح المادة المسيطر علينا .

حجرتي تدور بي ، أدور معها ، والدخان المتصاعد من سيجارتي يعبئ المكان أنظر إلى اللاشئ . أتأمل ذاتي المنكسرة عبر السنين ، ويدور حديث بيننا ربما بدأ منذ أن أصبحت أفكر في تلك الحياة .

- كيف نتخلص من أشياء بالية عفا عليها الزمن ؟

- حين ندرك الحقيقة .

- أى حقائق تقصد ؟

- حقائق كثيرة لا أجد لها معنى ولا أفهم حقيقتها فأتوه بين الفلسفات القديمة حقيقة الحياة . النفس .. أن أكون أولا أكون ، حقيقة ذاتي الضائعة وسط الزحام اغترابي ، اغترابك ، اغترابنا .

النفس بخار ، ما دمت أفكر فأنا موجود ، لكنني لا أحس بوجودي ، العقل يولد صفحة بيضاء .

قوالب فلسفية جامدة ، أحاول أن أطبقها على الواقع وسط هالة من التساؤلات .

- عندك مفهوم آخر ؟

- لو عندى ما قلته .

- لماذا ؟

- لأنني إذا ما تفوهت سيقولون مجنون .

كل من يبحث عن الحقيقة يتهم بالجنون ، أخاف أن أعزل بين الجدران مع الجرذان أو أوضع فى مستشفى للأمراض العقلية .

- أحمق لأنك تخاف .

- حين أضطرب أشعر بالخوف .

- مسكين .

- أحاول مواجهة الواقع .

- هروب من الماضى .

- بل مواجهة الواقع الذى أعيش فيه .

- سوف تنجح إذا قررت المواجهة .

- أواجهك أنت .

- فليكن .

تمطر السماء ، تهدأ العاصفة ، أجد نفسى تستريح وتهدأ معها فعاصفة كانت بداخلى أشد من تلك العاصفة .



على رصيف الميناء

على رصيف الميناء

الجو عاصف ، والبحر هائج مزبد ، تتناثر أمواجه متلاطمة فيرتفع الماء عاليا ملقيا رذاذه على الرصيف ، أما هو فكان يجلس عاليا بعيدا عن ثورة الماء ، لكن الثورة داخل نفسه تتصارع كأمواج البحر ، والقلب بمشاعره يتأرجح كالسفينة فى مهب الريح ، كانت أمامه على صفحة الماء سفينة تتأرجح ، نظر إليها وهى تواجه الرياح العاتية ، والأمواج الصاخبة ، وضوء الفنار يتساقط على الماء كشعاع ممتد ، يمتد تفكيره فى أمنيته فى الحياة ، يفكر كيف ، يفكر ماذا يقربه من قلبها ، فهو ما زال متعلقا بها يتمنى الاقتراب من بابها ، تقترب السفينة من باب البوغاز ، والموج يتلاطم بالبدن فيتراجع الماء والقبطان يحاول الوصول إلى بر الأمان .

تذكر آخر مرة رآها بابتسامتها ، كانت فى أجمل ثيابها ، ووجهها كالبدر يشع نورا من حوله ، فتمتزج الأنوار بأنوار الفنار ، والضوء المنبعث شعاعه يتجه رويدا رويدا إلى سطح الماء ، إلى السفينة التى تصارع الريح والأمواج ، حدث نفسه قائلا :

« هذا القبطان عنيد رغم شدة الرياح وتلاطم الأمواج ، وما يمكن أن يحدث من عواقب الأمور ، لكنه يحاول المرور لدخول الميناء » .

الليل ساكن ونفسه فى حيرة بين يأس ورجاء وظنون ، قد يطول الليل أحيانا عليه فيشعر كأنه دهر طويل ، وأحيانا يمر كالشهب ، يمنى النفس بشقة خالية فتدور النفس فى متاهات الطريق ، تدور السفينة فى دورة غيرعادية ، والقبطان لاحيلة له فيدير الدفة إلى ناحية أخرى حتى يتبين موقفه ، وكيف يكون تصرفه ، والأمواج تعلو وتهبط فترتفع السفينة

وتتلاطم الأفكار داخل نفسه فيحاول أن يقرر شيئا لكنه متردد ودائما متردد ، خصوصا فى مثل هذه الأمور فقلبه لا يهدأ ، شقة خالية ، ها ها ، يضحك فى سخرية .

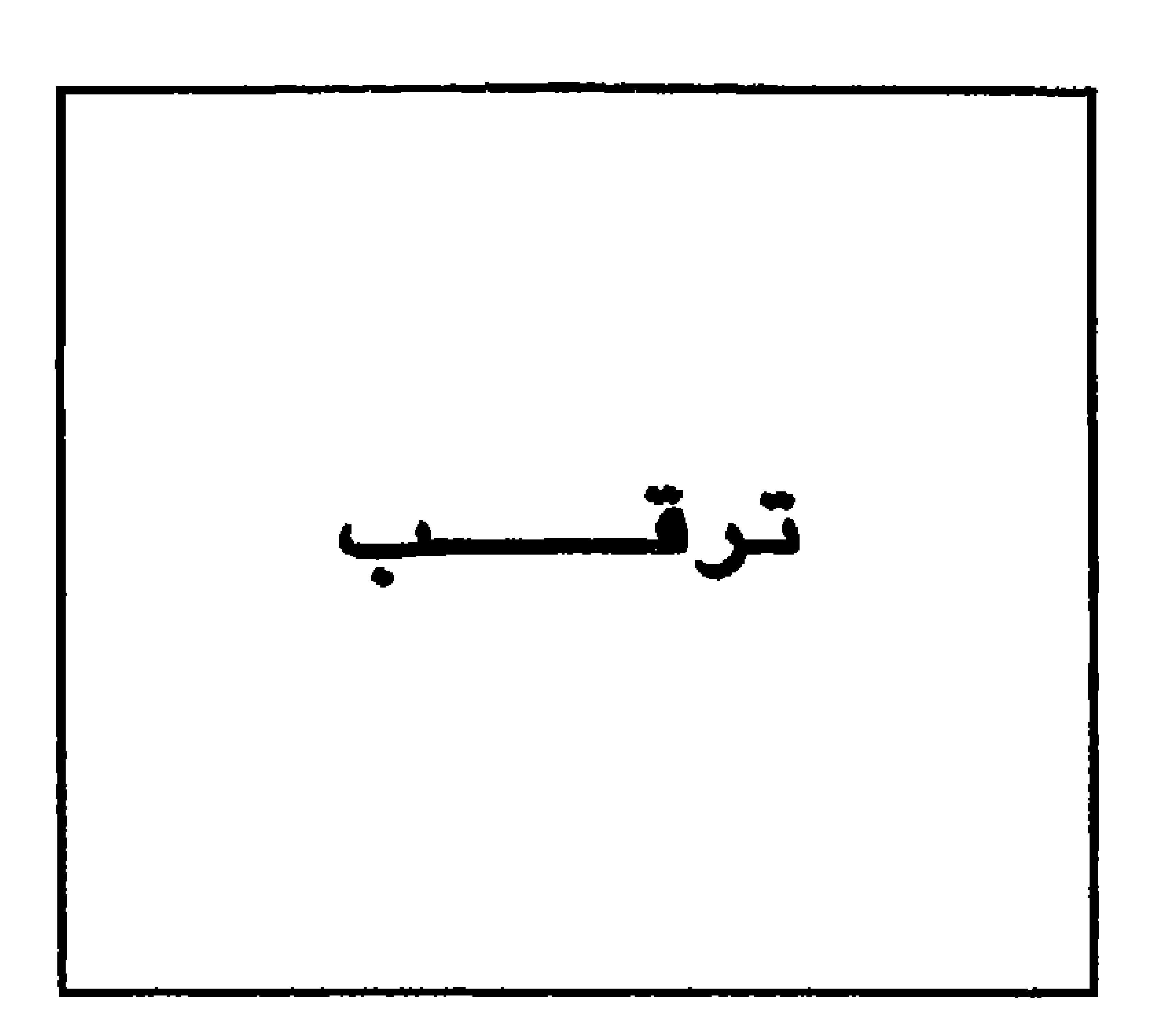
يجازف القبطان ويتجه ضد الريح ، ويتعاون معه الجميع للخروج من هذه الزوبعة ، يتهيأ للمرحلة المقبلة من عمله ، يتذكر ما قيل له عن مقدم الإيجار ، خمسة آلاف قالها السمسار ، يشعل سيجارة محاولا أن يبعد الأفكار عن مخيلته ، لكن كيف يبعد الإنسان عن نفسه ودنياه ، صورتها أمام عينيه ، إنها جميلة غضة ، صدرها كأنه موج عظيم ، صوتها له رنين ، شعرها مسترسل أسود حريرى الملمس يتماوج كالموج فيعطى انعكاسات كالضوء المنعكس على المرآة .

يحدث نفسه : لماذا ؟ لا يمكن ، الحب ، ماذا أنتظر ؟ تتعانق الأشياء والدخان المتصاعد من سيجارته يدور فى حلقات فيزيد من تفكيره .

تقترب السفينة من الميناء ، يتفادى القبطان الاندفاع فيهدئ من سرعة محرك السفينة خوفا من الاصطدام ، يتنهد فى جو زادت برودته فيشد معطفه على كتفيه ، ويبحث عن علبة سجائره لكنه لا يتذكر أين وضعها ؟ تعبث أنامله بالمحتويات التى بجانبه .. أخيرا يعثر عليها ، يخرج سيجارة يشعلها ونفسه لم تهدأ بعد .

سأل نفسه : أيكون حبا من طرف واحد ؟

يبصر لنشا قادما يقترب من السفينة الكبيرة ليرشدها ، يهدأ قليلا ، يهتدى تفكيره إلى قرار بعد طول انتظار ، فيشعر كأن البرج العاجى الذى يجلس فيه أصبح من نور ، والقمة الشاهقة تغزو السحاب ، وشعاع الفنار من فوق يصل إلى مكان طالما تمنى أن يصل إليه ، ترسو السفينة .. تهدأ النفوس ، يصافح كل منهما الآخر .


ترقب

قصة قصيرة	ترقب	

كانت الأفكار تهزني . أفكار غريبة تحتويني . رأيت من النافذة هطول المطر . يتكون من انسيابه بسيل جارف . أشعلت سيجارة . سيل جارف من الأفكار . غدا أو بعد غد سأخرج (على المعاش) . رغم قصر نهار الشتاء إلا أن الساعات تمر بطيئة وأنا أنتظر مترقبا حلول الظلام . مجلات كثيرة وكتب متناثرة أريد التهامها . مرتحلا أقضي الليل هاربا من مواجهة نفسي . أمسكت مجلة . تركتها . أمسكت كتابا حاولت القراءة فيه ، قرأت سطرا . تركته . أمسكت ورقة بيضاء حاولت الكتابة ، كتبت سطرين . أشعلت سيجارة أخرى . لم أجد ميلا للكتابة . مزقت الورقة . رأيت نفسي مع الجالسين على المقهى من أرباب المعاشات . شعري

بدأ يكسوه البياض . تخيلت أشياء عديدة وأنا أترقب تلك اللحظة من حياتى . أعددت كوبا من الشاى ربما أبعد عنى برودة الجو . ارتعشت يداى . مضطربا كنت . أشعلت سيجارة ، تصاعد دخانها يملأ الحجرة فى حلقات متتابعة . تخيلت نفسى أقف فى طابور طويل لا ينتهى أنتظر دورى الذى لا يجئ لصرف استحقاقاتى المالية .

مع الليل وسكونه الغريب تتحرك أشياء بداخلى . يصيبنى الرعب . تؤرقنى الأشياء فأتوه بين الماضى والحاضر .

دخلت مكتبتى الصغيرة أقلب هنا وهناك . هذا . لا . ذاك . خرج إلى كتاب (طه حسين) « حديث الأربعاء » ، تصفحت الجزء الأول فقابلنى (عنترة) قائلا لى : كنت بطلا فى الجاهلية ملأت قلوب خصومى رعبا .

تذكرت أنى خدمت فى ديوان الحكومة خمسة عشر عاما عانيت فيها وإلى الآن أشكو من آلام مبرحة بالفقرات .

قال (عنترة) : أعرف أنكم ترتابون فى سيرتى فى العصر الحديث : حين وجدته غاضبا تركته .

طوال خدمتى لم أكن أغضب أحدا منى . أحيانا كنت أنفعل ، لكنى سريع الصفح . لا أضر أحدا . حاولوا تسليمى عهدة بملايين الجنيهات . أبيت ذلك .

كان هناك فى العمل درجات . قديمة وحديثة .

أمسكت الجزء الثانى فقابلنى صراع بين القديم والحديث . تركتهما يتنازعان فيما بينهما .

تركت خدمتى لأنى أكره الصراع والنزاع . تجولت وأنا أكثر حرية ، فقابلنى (أبو نواس) فوجدته يمد يديه إلى

بكأس من الخمر وهو يقول : (وداونى بالتى كانت هى الداء) شربت حتى الثمالة ولا أعرف إن كان الكأس فارغا أم لا . وقبل أن أفيق من شرودى رأيت خصومة شديدة بين القديم والجديد وصراعا .

كان ينتابنى صراع نفسى عنيف . لململمت جسدى المتعب . حاولت الاسترخاء والبعد عن سؤال حائر كلما حاولت البعد عن سؤال ، جد سؤال وهكذا الحال والصراع يكاد أن يفجر رأسي ، فالكل من داخل الأعماق يتحرك متصارعا وأنا سجين اللحظات . قضبان حديدية تقيدنى فألوذ باللاشئ .

فراغ من كل جانب فألوم نفسى وأنا أتساءل هل بيدى حريتى ؟ . تناولت الجزء الثالث لأجد عتابا بين (الرافعى) و (طه حسين) . قلت لأستريح : (العقاد) يحسم المشكلة .

المطر ما زال ينهمر بالخارج . أسمع صوته على زجاج النافذة . قابلت (العقاد) . وجدت خصومة سياسية ونزاعا فتركته .

استرحت قليلا وأنا أستمع إلى الموسيقى . بحر من الأفكار يتلاطم فترد الموجة على الموجة التالية . ماذا فعلته ؟ . ماذا لم أفعله ويجب أن أفعله ؟ . آه .. ثلاثون عاما . تلك الأيام التى مرت ربيعا وخريفا وهأنا ذا فى الخريف . تساقطت دموعى وأنا أنظر إلى هوامش من تلك الرحلة . منذ الكتاب بقريتى . يوم كنت أحمل لوحة صغيرة من الصفيح كتبت عليها حروف أبجدية . كان الكتاب وسط بلدتى التى تغيرت معالمها الآن . كما تغيرت معالم الناس . رغم قسوة الشيخ (عبد الحميد) إلا أننى تعلمت منه الكثير . المدرسة الابتدائية والأستاذ (دسوقى) مدرس اللغة العربية ذو الشعر الأبيض . أصبحت أشيب مثله . وانتقالى من القرية إلى المدينة المزدحمة ودخولى الجامعة . شريط يمر يؤرقنى بما يحمل من أحداث

وذكريات . آه .. ستكون بين يدى بطاقة المعاش . أجلس وأحتسى القهوة . أدخن سجائرى . أقرأ الجرائد كل صباح .

تدريجيا خفت حدة المطر . على غير العادة أشعلت سيجارة وأنا على الفراش . شريط الأحداث عدسة تنتقل بى إلى كل شئ بوضوح مع ماض ثقيل أحمله ، وخوف من مستقبل يتوارى بين الأيام . نظرت فى مرآتى القديمة . رأيت ملامح وجهى قد غيرتها السنون .

الوجه الغائب

الوجه الغائب

مدخل :

حاول أن يرسم صورتها ، مزج الألوان على « البالتة » ملامح وجهها هى هى لم تتغير على مر العصور ، تبدلت أشياء كثيرة ، وأشياء أخرى أصابها العفن والهرم والزوال ، ووجهها لم يتبدل ، أمسك بفرشاته ، غمسها فى اللون المحبب إليه ، الإرجوانى ، خط خطوطا ، رسم الملامح الأولية .

قال لها يوما .. أحبك .. سخرت منه ، مر بالفرشاة على الوجه فبدت القسمات قاسية ساخرة ، قالت له يومها : وماذا وراء الحب ؟ كانت صورتها تتبدى شيئا فشيئا ، رسم ظلالا شكلت خلفية مبهمة لم تتضح بعد فى مخيلته ، قال لها : ولكنى أحبك .. مر بالفرشاة من جديد محاولا أن يعكس بسمة مشرقة أو حتى مصطنعة ، حاول وكرر المحاولة ، وعندما تعب وضع فرشاته جانبا ، تأمل الصورة وجدها تضحك ذات الضحكة الساخرة القاسية ، يومها ضحكت ذات الضحكة ، يومها أخرست الكلمات التى كان يود أن يسمعها إياها ، يومها حركت أشياء كانت كامنة فى أعماقه .

ارتعشت يده ، كاد أن يفقد توازنه ، أوشكت اللوحة على السقوط ، قال لها : أحاول أن أكون مثاليا ، ردت ساخرة : أفى عالم اليوم مثالية يا صغيرى ؟ جادلها : أحاول يا عزيزتى أن أسمو فى عالم الذئاب ، مطت شفتيها ازدراء ، كانت خبيرة بكل أساليب القهر ، وعدها ، سأرسم لك صورة تخلدك خلود الجيوكندة ، تمتمت بكلمات غير مفهومة ثم سألته بغباء : وما

الجيوكندة ؟ ود لحظتها لو ظل يضرب رأسه بالحائط إلى أن يموت ، ولكنه تماسك وشرح لها ، قال كلاما كثيرا عن دافنشي وبيكاسو وأنجلو ، اكتشف أنها لم تكن تصغى بل كانت تتثاوب ، سألته : وما الذى سأفعله بتلك الصورة ، قال لها ، الخلود .. قالت : وما قيمة الخلود بعد أن أموت .

اللوحة والفنان:

دخلت كالعاصفة ، تأملت اللوحة مليا ، قالت بحدة :

- أهذه أنا ؟
- نعم .
- ولكنها لا تشبهنى ؟
- إحساس فنان .
- فن غريب مرفوض ، وإحساس مريض سقيم .
- الغربة دارى ودثارى .
- لم لا تنزل إلى الناس .
- أعلم أنى أحيا فى غربة ، مرفوض فى مجتمعى ، ولكنه الفن .
- إذن لماذا الإصرار على ذلك الفن الذى يعزلك عن الناس .
- ثم جلست ، وضعت ساقا على الأخرى فى إغراء .. قالت بنعومة ؟
- ماذا لو امتهنت صناعة الأطر المذهبة - ستربح أكثر .
- إنك تقتلين أفكارى دوما فى مهدها ، تجهضين أحلامى ، تلعنين ثقافتى ، كل شئ عندك بمقياس الربح والخسارة .

وقفت ، جمعت حاجياتها فى غضب ، قالت بعصبية :
- الخاسر الوحيد فى العالم هو أنت ..
- وكما دخلت كالعاصفة ، انصرفت ، صفقت الباب خلفها ، وقف يحدق فى الباب المغلق مبهوتا ، محبطا ، مقهورا .

ملحمة الصعود والهبوط :

الفرشاة متمردة مغتاظة حانقة تجرى كالمشرط على وجه اللوحة ، يده دائمة الاهتزاز من الحمى ، أعقاب سجائره ملأت الآنية الزجاجية ، أقداح القهوة تراصت أمامه ، يأس قاتل يجالسه ، طموح بالبالته ، لا فائدة ، اللعنة !! ، صرخة سمعها البواب وهو يصلى المغرب أمام حجرته الصغيرة تحت السلم ، ارتطمت اللوحة بيده التى طوحت البالتة ، اهتز الحامل ، ترنح ، سقطت اللوحة على الأرض ، سالت الألوان وامتزجت بعضها بالبعض .

خرج ، تسكع بلا غاية أو هدف ، وطوال الطريق كان وجهها يلوح له ويختفى . دخل البواب المرسم ، أعاد تنظيم الأشياء وترتيبها كما اتفق ، أعاد اللوحة على الحامل بعناية .

عاد فى المساء ، تفقد اللوحة ، لم يجدها ، أخبره البواب (م) أخذها وترك هذه الورقة ، وضع الورقة جانبا .

عدسات التصوير مصوبة إليه كفوهات الرشاشات ، الفلاشات تبرق بكثرة ، عشرات الألسنة تسأل وعشرات الأيدى تسجل ، تاريخه الفنى ، مولده ، دراسته ، ...... ، ...... دخلوا تحت جلده ، دسوا أنوفهم فى جيبه ، قلبه ، صدره ، فنان العصر الذكى .... بعين دامعة وقف يتأمل اللوحة التى

آثارت كل تلك الضجة ، كانت صورتها التى سقطت وأفسدتها الألوان المنسكبة على الأرض .

الحلم والملامح :

اللوحات مبعثرة فى كل مكان ، الطلب يزداد على أعماله ، أصبح له وكيل أعمال لحوح كل معارض العالم تريد أن تقتنى لوحاته ، جلس فى ركن المرسم الكبير مكتئبا ، وضع أمامه " ألبوما " منتفخا بالصور ، سجل عمره الذى يفر فرار الأعمدة التلغرافية على شريط القطار طفل صغير برئ ، خال من الهموم ، تأمل الصورة طويلا ، طويلا ، قلب الصفحة ، كبر الطفل .. صار صبيا ، يجلس بجوار ساق ناظر المدرسة ، الصبى يحدق فى اللاشئ بنظرات ملؤها التحدى ، تمتم ، تكسرت سهام التحدى عند أول صخرة ، قلب الصفحة ، تتم ، أى شاب أنيق كنت ، تذكر تلك الأيام ، كلية الفنون ..

أزاح الألبوم جانبا ، غاص فى كرسيه الوثير وهو يفكر فى الوجه الذي يلوح له ويختفي أحيانا يخيل إليه أنه التقى بها منذ ثلاثة آلاف عام أو أكثر ، التقى بها فى الأزمنة الغابرة . ربما عاش من قبل ، وأحب وأنجب ، من يدرى ، كثيرا ما تتجسد له فى خياله أنثى كاملة يستبقان على شاطئ النهر ، فتسبقه فيناديها تعالى يا محبوبتى معبودتى " ميريت " .

قالوا له : العالم عندك ليس إلا ذوبانا للشكل والخط عندك يتنوع إلى اللامنتهى ورسمك يصاحب إيقاعات الموسيقى ، قصاصات كثيرة كلها تشيد بفنه ولوحاته حمقى .. ولكن أى حماقة تلك ، على المنضدة عشرات الصكوك التى تركها عشاق فنه ليتها كانت هنا الآن لتغترف من ذلك المال ما تشاء .

أقبل الخادم ، تتبعه الموديل الجديدة التى طلبها ، تسمرت عليها كلها عيناه وجهها جسدها كلها كلها ، تمتم (ميريت) وقف مبتهجا ، أنفاسه تتلاحق ، احتوى راحتيها ، كانت دافئة ، أسرع بها إلى المرسم ، مزج الألوان .. بدأ يرسم محموما أخذ يستعيد الحلم والملامح شيئا فشيئا .

ميريت :

الجسد الأنثوى الفائر : بلا وجه ، ظل كذلك أياما ، جسد لا يختلف فى كثير أو قليل عن أى جسد أنثوى آخر ، سمراء كانت .. قمحية اللون ، تذكر الحلم .. الوجه الذى يلوح ويظهر ، غاص فى مقعده الوثير من جديد يحدق فى الجسد ويطارد الوهم الذى يأبى أن يتجسد يوما ما .

أقبلت فى موعدها ، سمراء فارهة ممشوقة كالسنديانة ، تمتم " إيه يا ميريت يامعبودتى " منتصبة كنت فى ساحة معبدك تتأملين الزهاد والنساك والفسقة حملة جرار الكرم المخمر والجعة ، تتأملين بناتك بائعات الهوى ، ثم تقع عيناك علىّ أنا وحدى المنتصب أمامك وسط السجد خوفا من بطشك ، كنت أتأملك ، أتأمل تاجك الذى يلمع على مفرقيك ، أنفك الدقيق الأشم ، عينيك المتسعتين كعيون المها ، وذلك القرط الغريب المليء بالطلاسم الهيروغليفية .. ولا أفيق إلا على صوت الكهنة وهم يدقون فى الكؤوس إيذانا ببدء الطقوس المقدسة ، طقوس الفسق فى ساحة معبدك .

انتبه على صوت الموديل الجديدة تسأله إن كان يريدها فى عمل الليلة ؟ هز رأسه واتجه إلى المرسم ، مزج الألوان وتناول الفرشاة ، قال لها : ليس أمامى سوى رسم الوجه . بدأ يرسم .. خط الملامح الأولية ..

غاص وجهك يا " ميريت " في الوحل .. لم ؟ ، تلاشت من أمام ناظريه الخطوط ... امتلأت عيناه بالرمل .. عاد يرسم من جديد ، ثانية تلاشت الخطوط وامتلأت عيناه بالرمل ، صاح الكهنة في غضب ، حطموا الجرار أيها الفسقة ، واسجدوا للربة " ميريت " .. أهرقوا الجعة تحت أقدامها المقدسة ، طوحت يده " بالبالتة " ، انسكب اللون البرونزى ، واختلط بالأرجواني .. ابتعد عن اللوحة ، لاحت له ميريت ، الموديل ، وهى تغرق فى لجة من الماء الآسن ، شملت .. .. سقطت .. تلاشت وغرقت ، اتجه إلى الموديل يحاول أن ينتشلها قبل أن تغرق ، تشبثت بيده ، أنشبت أظافرها فى لحمه ، ولكنه لم يستطع ، كان يغرق معها ، قال لها : " ميريت " خذينى معك إلى القاع ... القاع ... القاع ..

الخـــروج:

لن يرسم ثانية .. سيذهب فى رحلة طويلة إلي الجنوب ، سيبتنى بيتا من الطين والحجر فوق التل الترابى الكبير المطل على ساحة المعبد .. سيزورها كل يوم .. لن يأبه لتعليمات الكهنة .. سيملأ جرته بالجعة وبأفضل الأنبذة .. وسيذهب إليها .. سيحارب الكهنة وسيطرد بائعات الهوى من ساحة المعبد .. سيزيل الوحل عن وجهها .. سيغيب فى قبلة طويلة يطبعها على الشفاة الوردية التى فى لون الكرز .. وربما يستولدها ابنا لا يعرف البكاء .

نظر إلى المرآة . .

وجد رجلا يبتسم . . منبسط الأسارير ، واصل طريقه إلى مخدعه الفسيح البارد ، أحس بضيق فى صدره ، وبرودة تسرى فى أوصاله ، استلقى على الفراش ، عرق بارد يتصبب

من جبينه ، إنها « ميريت » تناديه ، المقبض النحاس يتحرك بخفة ، الباب ينفرج قليلا ، بنظرة كليلة تبينها . . كانت " ميريت " فى غلالة شفافة ، جاءت : جاءت أخيرا . اقتربت من الفراش ، انحنت عليه بود وحب ، طبعت قبلة على جبينه البارد ، وبأناملها الرقيقة أخذت تتحسس فوديه الأشيبين .

الصغيرة والبحر

الصغيرة والبحر

كان الصيف شديد الحرارة هذا العام ، الناس يخرجون من منازلهم كل يبحث عن شاطىء يقضى به عطلة نهاية الأسبوع ، مضيت مع من مضوا إلى الشاطىء وقفت تائها أبحث عن مكان وسط الزحام ، عثرت أخيرا على مكان أمام البحر مباشرة ، حولى مقاعد متراصة ، أجساد عارية ، مظلات واقية رصت بانتظام دون قصد ، ألوانها فى انسجام طبيعى مع زرقة السماء والماء ، انبعثت رائحة اليود ، أخذت استنشق الهواء يملأ رئتى ، تلفت حولى فرأيت لحوما بشرية ممددة فى استرخاء على الرمال ، جاءنى (الجرسون) فقطع على تأملى لهذه الصورة الغريبة على ناظرى ، طلبت (فنجانا) من القهوة كعادتى فى كل صباح ، فى يدى جريدة أتصفحها ، بالقرب منى تجلس فتاة لم تتجاوز الخمسة عشر من العمر تتحاور مع أمها ، بينما الأب جالس يتصفح جريدة مثلى سمعت كلمات تأتينى عبر الضوضاء والضجيج وتلاطم أمواج البحر ، فهمت أخيرا أن الأم تحاول إقناع ابنتها بنزول الماء ، بينما الفتاة تعارض بشدة ، أخذ صوت المرأة يعلو رويدا رويدا ، سمعت حوارا عاليا بين الفتاة وأمها :

- أنت صغيرة يا (هبة) .

- لا .. أنا كبيرة .

- أكبر منك يرتدين (المايوهات) .. لماذا تخجلين ؟

- عندما يهدأ الشاطئ قبل الغروب سوف تكون الفرصة مناسبة .

- أنت عنيدة .

- لا . . لست عنيدة .

- جبانة .

- وصمتت (هبة) فعادت الأم تحاول من جديد إقناعها قائلة لها :

- وأنا فى مثل سنك (يا هبة) كانت أمى تصحبنى إلى البحر أنزل أنا وهى ، كنت جميلة مثلك تعرفت بأبيك على الشاطىء .

كانت الفتاة فى حيرة بين ما تريد أمها وبين إرادتها ، تنظر إلى أبيها الغارق فى تدخين غليونه وقراءة جريدته مستنجدة به ، لكن .. تصفحت جريدتى حتى انتهيت منها ، صوبت نظرى إلى الشاطىء ، فرأيت فتيات فى مثل عمر (هبة) أجسادهن تزخرف صفحة الماء ، سمعت الأم وهى تقول لها : سأنزل معك يا (هبة) .....

نظرت إلى الرجل القابع خلف نظارته السوداء فوجدته متراخيا غارقا فى كرسيه منشغلا بتنظيف غليونه .

أخذت (هبة) تنظر يمينا ويسارا ، وإذ بها تخلع فستانها على استحياء ، فبدت أمامى أنثى كاملة مرتدية (مايوها) أحمر اللون ، احمرت وجنتها ، صدرها ممتلىء ، ناولتها أمها (البرنس) فأرتدته بسرعة وجرت نحو الماء .

أخذت أتابعها مندهشا لسلوكها حتى اختفت فى الماء ، ولما أيقنت أنها غمرت جسدها فى الماء ، خلعت (البرنس) ثم ألقت به على قدر قوتها ، طاف فوق الماء راجعا إليها ، علت ضحكات الفتيات من حولها ، ألقت به مرة ثانية ، حمله الماء ، مدت الأم يدها فلم تستطع لمسه ، حاولت (هبة) الاقتراب لتناوله لها ، لكنها وجدت نفسها تقترب من الشاطىء ، فتراجعت للوراء ، اصطدمت بفتى كان بالقرب منها ، سمعت ضحكات تعلو وتعلو ، وإذ بهن يرشنها بالماء ، حمل طفل

صغير كان يقف بالقرب من الشاطىء (البرنس) إلى أمها ، ابتعدت (هبة) عن نظرى ، سمعت همسات حولى ، كانت الأم تخلع ملابسها ، ظهرت مفاتنها ، كانت جميلة ترتدى (مايوه بكينى) أسمر ، الكل من حولى يحملق فى هذا الجسد البض ، بينما هى لا تعبأ بهذه النظرات المحمومة ، تركت زوجها جالسا ، ومضت تسير بخطى بطيئة تتحدى العيون والهمسات ، كانت (هبة) تقترب من الشاطيء مضطربة ، تنظر يمينا ويسارا ، ثم تعود إلى الماء ، رفعت يدها ، ضحكت الأم ، وقفت تتأملها ، بينما (هبة) تريد الخروج ، رجعت الأم إلى المظلة ، حملت (البرنس) ، سارت بخطى بطيئة كأنها تعاندها حتى اقتربت منها ابتسمت لأمها ، خطفت (البرنس) منها ، ارتدته بسرعة فى الماء ، عندما تأكدت أنها أحكمت ضمه إلى جسدها ، خرجت تجرى مطأطأة الرأس ، وتركت أمها تغوص فى الماء .

غريب
على باب زويلة

غريب على باب زويلة

وفد إلى المدينة ، رآها تتلألأ بالأنوار والليل فيها نهار ، يمسك بين يديه مسبحة ، وفى أصبعه خاتم ثمين ورثه عن أبيه عز الدين الذى ورثه عن جده الصالح أيوب ، كانت المدينة مزدحمة ازدحاما شديدا ، لا يعرف الغريب فيها شيئا ولا يدرى من أين أتى إليها ، السيارات طابور لا ينتهى ، وقف يتأملها ، لم ير لها أول من آخر ، الناس منتشرون فى المدينة كالجراد .

حاول أن يستنشق الهواء فلم يستطع ، شعر باختناق ، دخان كثيف يملأ المكان من عوادم السيارات والمصانع ، لم يكن فى استطاعته المضى فى طريقه وسط الزحام ، فكلما تفادى سيارة وجد الأخرى تقترب منه ، وكلما تفادى أحد المارة اصطدم بالآخر ، كاد أن يصرخ ، تلفت يمينا ويسارا محاولا المرور وسط طابور العربات وإذ بعربة مسرعة تأتى من الخلف كادت أن تصدمه ، تراجع ، وقع على الأرض .

خاولت (إيزيس) أن ترقيه ، فوضعت يدها على جسده وتمتمت بكلما تت ذكرت فيها اسم الآله (آمون رع) .

قام ممتلئا بالنشاط ، يتلفت حوله ، شعر بالكآبة من هذا الجو المشحون ببقايا الأشياء ، الناس فى هذه المدينة بقايا آدميين ، يتحركون كهياكل عظمية نخرها السوس . خلع ساعته وخاتمه ، أخرج منديلا جفف به عرقه ، أعاد الساعة مكانها ، وضع الخاتم فى أصبعه وبحركة لا شعورية أدار الخاتم ، دارت الدنيا ، فظهر له خادمان يقولان له فى صوت واحد : (شبيك لبيك) ، تسمر فى مكانه ، حين أفاق من دهشته تمنى لو يطير فوق هذه المدينة ، شاهد بساطا اخضر اللون يتهادى إليه ، يتمايل مع النسمات فى خفه ، جلس عليه ، طار به ، كان قلبه منقبضا ، فلأول مرة يطير ، شاهد

المدينة من عليائه كلها أقزام ، يرى رؤوسهم متراصة كبساط أسود مفروش على مساحة كبيرة .

أمسك مسبحته ، سبح لله شكراً أنه غريب عن هذه المدينة وإلا أصابه الجنون ، وجد مآذن كثيرة ، قال لنفسه : ألهذا يقولون عنها مدينة الألف مئذنة ، وجد نفسه يهتز مع اهتزاز البساط ، طار بعيداً حتى أصبح فوق النيل ، نظر إليه قائلا : شريان جار فى الجسد الأخضر ، قادم من أعماق الوادى ، قديس يحرس قلب الأرض ، ايه أيها الاله (ختمو) ، لو تجعل النيل يمضى الى الصحراء فتكون على ضفتيه الجديدتين مدائن جديدة وعواصم غير التى يعيش عليها أهل هذه المدينة طالما هم راكدون .

تأمل النيل كثيرا وهو يشاهد الكبارى العلوية من فوقه ، فتحركت أشياء كثيرة بداخله تهتز شفتا الحكيم (ايبور) :

(الفوضى ضاربة أطنابها فى كل مكان ، البلاد قش ملتهب ، الإنسانية منحلة ، تدور البلاد كما تدور رحى الفخار ، حقا أن النيل لازال يفيض ، ومع ذلك لا يقوم بحرث الأرض أحد من الفلاحين ، تقول السيدات : آه لو وجدنا ما نأكله ، حقا ، لقد خيم على البلاد الحزن .

نزلت دموع الغريب وهو يبتعد عن النيل العظيم مودعا الاله (خثمو) ، طار بعيدا حتى وجد نفسه فوق نفق ، قال لنفسه : فلأنظر داخل هذا النفق ، نزل ، وجد نفسه يغوص فى الماء ، حاول أن يطير فاصطدم بالسقف ، الماء يعلو ويعلو ، حاول أن يعود من حيث أتى ، أخذ يبحث عن الباب الذى دخل منه ، أخيرا أفلح فى الصعود ، وجد البالوعات من حوله قد طفحت وغطت الشوارع والروائح تزكم الأنوف ، طار ثانية ، وقف فوق عمارة عالية ، شاهد الشوارع البعيدة ، نظيفة ، اقترب منها ، وجد الزينات واللافتات قد

علقت ، عرف أن مسئولا كبيرا سيزور هذا المكان ، تعجب بادىء الأمر ، قال : لقد فعلت الآلهة سحرها ، كانت الشوارع خالية من المارة والأنوار منتشرة وكأن الاله (خونسو) قد أرسل أشعة ضوئه السماوية لتملأ المكان ، الأرض مبسوطة مرشوشة بالماء ، أخذ يمضى بعيدا حتى وصل إلى باب المدينة ، حينذاك أدرك أنه عائد من حيث أتى ، وقف على مبنى قديم ، اهتز به ، حاول أن يعتدل ، فقد توازنه ، حاول الطيران فلم يستطع .

حاولت (ايزيس) أن ترقيه ، فوضعت يدها على جسده ، تمتمت : (أنا ايزيس الآلهة .. كلمات صوتى رقيات) .

لكنها لم تفلح معه هذه المرة ، كان قد سقط .

الغرفة ٣١٠

الغرفة ٣١٠

كانت ليل الانتظار طويلا ، ياله من ليل ثقيل يمر ، ماذا سيحدث بعد قليل ، تفكيرى مشتت ، خيالات ، أوهام ، ربما يحدث شىء ليس فى الحسبان ، ماذا جرى لك هذه الأيام ؟ أنت إنسان مؤمن ، دع الأمور لله ، لا تفكر كثيرا ، اطمئن .

كنت فى حيرة من أمرى ، سمعت صوت نواح وعويل ، الأصوات تعلو فى أمواج كآبتى ، النحيب يزداد ، قلت : " إنا لله وإنا إليه راجعون " .

صراخ آخر بالغرفة المجاورة ، انكمشت داخل نفسى ، التصقت بالجدران ، ارتعد جسدى ، ازداد نبضى ، حاولت النوم ، لم أنم .

آه ، آه ، صرخة مكتومة من السرير المجاور ، يئن أنينا مكتوما ، يشير بيديه كالأخرس أشار لى ، وجهة أحمر ، قمت مذعورا وجريت نحوه ، كان معوض لا يستطيع التنفس ، ناولته قليلا من زجاجة الليمون التى تجاوره ، كان ممنوعا من شرب الماء ، تنفس الصعداء .

عدت إلى سريرى محاولا النوم ، الأفكار تجىء وتذهب ، الصور تتراءى أمامى ، بالأمس نقلوا مريضا إلى المشرحة ، حيرتى تزداد ، سجن من أربعة جدران ، السجان فقط غير موجود ، غاب فى الظلام .

الموت .. يُسيطر على إحساس غريب ، تساءلت لماذا نخافه وهو حقيقة واقعة ؟ هربت نفسى من الإجابة ، حينما أتصفح الجريدة اليومية ، الخبر اليقينى الوحيد هو صفحة الوفيات ، رغم ذلك نهرب من هذا السؤال ، تؤرقنى الأشياء من حولى ، صمت عن التفكير لحظة ، سمعت خلالها صوت أقدام تقترب من الحجرة ، فتح الباب ، دخلت ترتدى معطفا

أبيض اللون ، نادت اسمى تجهيز عمليات ، لم أجبها ، كررت النداء ، لململمت نفسى ، حاولت القيام ، جسدى يترنح ، وقفت ، نظرت فى المرآة ، معطف أبيض فى انتظارى ، ارتديته ، أصبحت مقيدا ، سرت بخطى بطيئة ، قدماى تتقدم إحداها والأخرى تتراجع للوراء ، آه ، اسطوانات (الأكسجين) ، ربما وضعوا لى أنبوبة غاز (النيترو) السام ، هيىء لى أن جسدى يتغير لونه ، يقترب من اللون الأزرق ، صرخت ، نظرت إلى الممرضة فى اندهاش ، انقبض قلبى ، حتى الهواء فاسد ، تساءلت هل الأنبوبة الموجودة الآن فى غرفة العمليات أكسجين ؟ ربما .

- الأعمار بيد الله .

- الإهمال بيد البشر .

- ماذا حدث لك ؟

- لا أدرى .

- ألا تثق فى نفسك ؟

- وهل أثق فى الآخرين ؟

- اخلع هذا المعطف .

- لماذا ؟

- حتى تخرج من هنا .

- إلى أين ؟

أفقت على صوت الممرضة تقول لى الطبيب فى انتظارك ، اخلع الخف ، ارتدى هذا ادخل هذه الحجرة ، أنظر إليهم فى صمت ، وجهى يتصبب عرقا لم أعد أفكر ، أصبحت

لا أستطيع حمل جسدى ، لم أعد قادرا على عمل أى شىء ، شبه مخدر ، نظرت إلى الممرضة فى استغراب وهى تقول (عملية بسيطة) قلت لنفسى (لكن الهواء فاسد) قالت الممرضة (اطمئن) طبيب ناجح سيجرى لك العملية ، اقترب منى الطبيب ، تأملته ، نم هنا ، اكشف صدرك ، وضع السماعة ، (خذ نفس) .

كانت حولى مجموعة من الاسطوانات ، احسست بها تتحرك نحوى ، هيىء لى أنها تفرد ذراعيها وتجذبنى إليها ، شعرت بالاختناق ، سعلت .

نظر إلى الطبيب قائلا ، منذ متى جاءك هذا السعال ؟

- منذ أسبوع تقريبا .

- يجب أن تعالج منه أولا .

ابتسمت لأول مرة منذ دخولى المستشفى ، امتلأ جسدى بالنشاط ، عادت الدماء إلى وجهي ، جسدى لن يتغير لونه ، تذكرت كلمات معوض (أهلى تبرعوا لى بالدم ، لا يوجد دم بالمستشفى) قلت لنفسى والدهشة تتملكنى (أين الدم الذى يجمع كل يوم ؟ لقد كنت أول المتبرعين .)

قال الطبيب : أتدخن ؟

- نعم .

- يجب أن تمتنع عن التدخين وتحضر بعد أسبوع .

مضيت إلى الخارج ، حاولت خلع المعطف الأبيض ، لم أستطع ، ناديت على الممرضة ، فكت قيدى .

قالت : لماذا أنت متعجل هكذا ؟

نظرت إليها ، خطوت بسرعة نحو الغرفة (٣١٠) نظرت إلى الموجودين ابتسمت لهم ، جسدى ما زال يحتفظ بلونه ، نظرت فى المرآة ، لم أكن أنا هو أنا ، أسرعت بالخروج ، كنت شخصا آخر ولد من جديد .

أوراق اللعبة

أوراق اللعبة

كان حائرا ، فكلما اقترب أول الشهر أحضر ورقة وقلما وأخذ يحسب ويعيد الحساب ويكرر ذلك مرات عديدة ، إيجار الشقة ، ثمن السجائر ، مصاريف المدارس ، الدروس الخصوصية ، أشياء كثيرة ، وكل يوم تزداد فيه الأعباء .

أشعل سيجارة ، امتلأت الحجرة بالدخان .

" فى الشهر الماضى اقترضت مبلغا من صديق لى ولم أستطع الوفاء به حتى الآن عندما يأتى الغد ، ربما تتغير الأمور " .

أفاق على صوت المذياع ؟ " وفق الكل رحمن رحيم " .

قال : آمنت بالله واقترب من فراشه محاولا النوم .

نشيطا خرج من منزله كعادته ، صعد (الأتوبيس) بعد عناء ، شعر باختناق - تصبب عرقا ، كلما مر (الأتوبيس) على محطة ازداد ازدحاما ، وسط هذا الجو الخانق رأى مضايقات ، هذا وذاك يبعث فى جيوب الركاب ، لم يستطع أن يتفوه بكلمة .

أخذ يقترب من الباب دون إرادة منه ، هذا يدفعه ذاك يلعنه حتى نزل ، أخرج منديله يجفف عرقه ، أصلح من هندامه ، سار فى طريقة إلى المصلحة ، جلس إلى مكتبه ، جاءه فنجان القهوة المعتاد ، أخرج الجريدة من حقيبته وأخذ يتصفحها ، حدث نفسه : « لن أصرف الراتب اليوم » .

أخبره زميله أن يذهب إلى الصراف ، نظر إليه نظرة حادة ، ثم انكب على أوراقه المكدسة وسجلاته لينهى ما تأخر عن إنجازه ، كل الموظفين صرفوا رواتبهم بعد أن تركوه غارقا يدقق بنظره الذى ضعف أثناء تواجده بهذه المصلحة .

بعد قليل اكتظت المكاتب بالموظفين ، أزاحوا الصمت الذى كان يهيمن على الحجرة نظر إليهم يتفرسهم كل واحد على حدة ، البعض يثرثر ويخرج راتبه : هذا (للبدال) وذلك للجزار و . . . . أحسن بألم الجرح الذى حاول أن يتناساه ، لكن رغم أن جيبه خاو وديونه كثيرة لن يتحرك من مكانه ، ظل تفكيره مترددا الى أن جاء موعد انتهاء العمل ، خرج الموظفون وتركوه غارقا فى مكتبه ، عاد الصمت من جديد يحتويه ، أشعل آخر سيجارة يمتلكها وقام منصرفا الى بيته ، وبينما هو يسير فى طريقة أحسن بالدائنين يتتبعونه بنظراتهم فلم يستطع أن يتفاداهم ، كانت عيونهم تترك آثارا على جسده ، صعد درجات السلم ببطء متثاقل ، فتح الباب ، كانت زوجته تنتظر عودته لتحضير لوازم البيت الضرورية ، لم تستطع أن تتلاقى عيناه بعينيها – دخل حجرته ، نظر إلى صورته المعلقة على الحائط ، كانت تهتز ، أغلق على نفسه باب الحجرة بأحكام ونام ، لم يدر كم مر من الوقت .

رن جرس المنبه ، قام على الفور ، ارتدى ملابسه ، بدأ رحلته المعتادة بالوقوف على محطة (الأتوبيس) طال انتظاره ، جاء (أوتوبيس) مسرعا لم يقف فى المحطة لم يستطع الركوب ، فى غيره ، ظل واقفا ، فكر فى الرجوع الى البيت ، أخيرا وصل أوتوبيس استطاع أن ينحشر وسط الركاب : ، « سأصرف الراتب اليوم ، لن أعطى أحدا شيئا حتى أعيد حساباتى من جديد ، لا سأعطى (البدال) نصف المبلغ حتى أتفادى نظراته الحادة . والإيجار يجب أن يدفع أولا ، مصاريف المدارس مطلوبة ايضا ، كيف أهرب من نظرات أولادى ، سأقلل من عدد سجائرى ، لماذا لا أطلب إعانة ؟ لا عادل صديقى ، سأطلب منه مبلغا . »

نزل من (الأتوبيس) مندفعا ، دخل المصلحة مبتهجا ، ارتشف قهوته ، ذهب الى الصراف ، وضع النقود فى حافظته

أخذ يعمل فى نشاط حتى انتهى وقت العمل ، خرج مسرعا لكى يجد لنفسه مقعدا بالأتوبيس ، أشعل سيجارة فى سرور ، هدأ تفكيره قليلا ، وضع يده يتحسس جبيبه كى يطمئن على نقوده ، أخذ يعيد حساباته ، كم سيبقى له ؟ كم سيدفعه؟ انقبضت أسارير وجهه ، حاول أن يشغل تفكيره بالنظر من النافذة ، جاءت محطته ، سار فى طريقه إلى منزله ، ابتسم (للبدال) دخل مسرعا صعد الدرجات بخفة ، فتحت زوجته الباب بحدة ، قال لها : (احضرى ورقة وقلما)

- أخذ يعيد حساباته « النقود كلها ستتبخر » .

- سألته زوجته : هل أحضر لك طعام الغذاء ؟

- لم يلتفت إلى سؤلها كررت السؤال عليه ، رد بصوت عال :

- اتركينى الآن .

أغلق خلفه الباب ، جلس على الفراش ، أخذ يضع أمامه لكل دائن حقه ، النقود قليلة ، ضحك ، أخذ يفكر ، قام بعيدا عن النقود ، نظر من النافذة ، لم تعجبه المبانى الشاهقة التى كلما نظر إليها تعب بصره ، أغلق النافذة ، ذهب الى دورة المياه ، لم يغب بها كثيرا ، عاد فوجد النقود كما هى مبعثرة على الفراش ، نظر إليها ، جمعها ، أعاد ترتيبها ، عدها من جديد ، وضعها على الأرض ، نظر إليها قليلا ، ابتعد عنها ، ذهب إليها ، انحنى عليها ، قسمها قسمين ، وقف عليها بقدمين عاريتين ، لم تعجبة اللعبة ، نزل من فوقها ، وضعها كلها فوق بعضها ، ثم وقف عليها مرة أخرى ، لم يشعر بها .

ضحك فى سخرية ، فتح النافذة ، أطل منها وإذا بالعمارات الشاهقة تخرج له لسانها أغلق النافذة بسرعة ، وعاد إلى نقوده ، مزقها نصفين ، أعاد اللعبة ، بكى ، نظر فى المرآة ، كانت لحيته طويلة ، ارتجف جسده ، وقع على الأرض ، وقام متعثرا ، جمع الأوراق المالية الممزقة ، ألقى بها من النافذة ، ضحك فى (هيستريا) ، فتح باب الحجرة وأثناء خروجه أغلق الباب بشدة ، فوقعت صورته مرتطمة بالأرض .

حكاية
من الزمن الماضى

حكاية من الزمن الماضى

كان عائدا من عمله مرهقا بعد يوم من العمل الشاق وزحمة المواصلات ، فى ذلك اليوم اشتدت العواصف وأمطرت السماء وعندما اقترب من منزله وجدها سمع أنين صوتها ، اقترب منها فلم تتحرك رغم غزارة المطر ، تفحصها ، وجدها لا تستطيع الحركة من مكانها . تردد . كاد يمضى إلى حال سبيلة تاركها وشأنها .

تقدم خطوتين ثم رجع عائدا وحملها ، ظلت تئن وكأنها تصرخ مستغيثة به . وضع لها طعاما ....

لم تأكله . تعجب ! أليست جائعة ؟

اقترب منها ، مسح على رأسها ، مسح الماء العالق بجسدها ، أخذ يطعمها . كانت صغيرة وجميلة . بعد ما تناول طعامه ذهب بها لزيارة الطبيب . كان يعرفه . فحصها . وضع لها (جبيرة) وطلب منه أن يهتم بها قائلا : (يبدو إنها وقعت من مكان عال وسوف تتحسن حالتها لكن بعد فترة) . عاد إلى بيته يحملها ، فرش لها فى الصالة ووضع بجانبها طعامها وشرابها .

فى الصباح ذهب إلى عمله بعد ما أوصى زوجته بها خيرا . فى هذا اليوم جاءته الحوافزالتى كان ينتظرها فعاد إلى بيته مسرورا يحمل أكياس الفاكهة . عرف من زوجته أنها لم تأكل رغم محاولات أولاده معها ، جلس يطعمها وهى ساكنة فى مكانها لا تتحرك . كانت تنظر إلى كل من فى البيت . غريبة هى . حاولت أن تستأنس بهم .

مع مرور الوقت تحسنت حالتها ، بدأت تقوى على السير ، دخلت حجرته ونامت بالقرب من سريره . أولاده فرحون بها . حاولو إطعامها لكنها لم تأكل إلا من يديه ، ازدادت حركتها وأخذت تجرى هنا وهناك وعندما تراه تقف ناظرة إليه وإذا أشار لها بيديه جرت نحوه تجلس بالقرب من قدميه فيضع يده على رأسها وهو يبتسم .

أصبحت بينهما ألفة حتى إن زوجته وجدت أن أغلب وقته يقضيه معها فبدت الغيرة تدب فى قلبها ، قالت له : لقد أصبحت قوية فدعها وشأنها ولعلنا نحسن صنعا لو أطلقنا حريتها . قال لها : إنها أصبحت جزءا من حياتى .

كان أينما تحرك داخل الشقة تحركت معه ، لا تتركة حتى إذا اتجه إلى فراشه نامت بالقرب منه .

حاولت زوجته أن تتخلص منها فألقتها خارج الشقة ، لكن عند عودته كانت تنتظره بجوار الباب وتدخل معه .

بدأت تنمو وتزداد جمالا ، اهتم بها فقد وجد فيها أنيسة له ، حتى إنه إذا انشغل عنها بقراءة الجريدة أخذت تداعبه فتجذب الجريدة إليها جذبة خفيفة لتشد انتباهه فيضع يده ويمسح على رأسها .

نام على فراشة مريضا فتكورت بجواره ملتصقة به ، كلما حاولو إبعادها لا تتحرك . زاره الطبيب ووصف له العلاج ، رغم شده مرضه كان يضطر أحيانا أن يقوم من فراشة ليطعمها .

« كنت أراها والحزن قد كساها ، تنظر إلى حزينة وتقترب منى بعدها تركنى الجميع ، كانت كالطفل البرئ تداعبنى فأمسح على رأسها بكفى . حب عميق بيننا لاينتهي » .

اشتد المرض عليه ، تجمع أولاده حوله ، أوصاهم بوصية لقمان لابنه « يابنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير » .

أما هى فكانت تجلس فى ركن من أركان الحجرة صامتة شعر بضيق فى صدره . لم يستطع التنفس ، سعل سعالا حادا ، أسرعت زوجته إليه بكوب من الماء ، رشف منه رشفة ثم شخص ببصره نحو السماء ... أخذت تدور حوله . اضطرب الأولاد وعلا صوتهم بالنحيب وعم الحزن البيت .

بعد عودتهم من المقابر أخذ يبحث كل منهم عما تركه الفقيد . تنازعوا فيما بينهم ، أشتد الخلاف . صرخت ابنته الصغرى فيهم : كفى . كفى . كل ما يهمكم الميراث . واشتد الصراع فيما بينهم . أما هى فقد كانت تدور داخل الشقة باحثة عنه فى كل مكان . لم تتناول طعامها . تمؤ ليل نهار . كان لموائها صدى داخل الشقة ، وفى الصباح خرجت من البيت ولم تعد ..

اللمسات الأخيرة

اللمسات الأخيرة

جلست وأمامى اللوحة لأرسم الصورة العالقة بمخيلتى بعد ما وضحت الرؤيا ، كانت الصورة رقم عشرين ، والريشة فى يدى تتدفق دون تكلف لترسم تلك الخطوط التى طالما حاولت رسمها لكنها استعصت على كثيرا ، فملامح الوجه تظهر رويدا رويدا بعد معاناة طويلة فى لوحاتى السابقة .

كانت الوجوه فى الماضى حزينة غامضة غريبة عنى وكانوا يقولون أن طابعى التشاؤم فاللون الأزرق كان الغالب على لوحاتى ، والغموض سمة مميزة للأعمال الماضية ، كنت هذه المرة أكثر صدقا مع نفسى وأنا أضع اللمسات الأخيرة .

أصابتنى الدهشة عندما رأيت ملامح الوجه تظهر واضحة دون غموض ، كانت رؤيتى للأشياء قد اختلفت عن ذى قبل ، تسع عشرة لوحة لم تكن الوجوة داله على ما أريد فالعلاقة بين اللوحات السابقة وتلك اللوحة علاقة غريبة .

هل كانت اللوحات فيما مضى تجريبية ثم جاءت تلك اللوحة ؟ تأكيدا لذلك ابتعدت قليلا لأشاهد الصورة المرسومة بعناية وأنا أحاول البحث عن تطابق الصورة مع الصورة العالقة بخيالى فوجدتنى أتذكر كل شئ الآن .

تساءلت : كيف اكتملت ؟ هل كانت لها نقطة بداية ؟ أحاول الآن أن أستجمع الخيوط متى كان أول إدراك لتلك الملامح ؟ كيف عاشت ملامحها بداخلى تلك السنين ؟ محاولة مستحيلة فمن الصعب تذكر كل شئ ، هناك ملامح ما أن تقع عيوننا عليها حتى تبدوا كأنما كانت معنا طول الوقت ، لم نفترق لحظة كأنها جزء منا أو داخلنا وليست شيئا خارجا عنا وحاولت استرجاع ما مضى .

هل تذكرين أول مرة رأيتك فيها ؟ متى كان ذلك ؟ على ما أتذكر في تجمع من تلك التجمعات التي يلتقي فيها دائما هؤلاء المثقفون ، كانت الابتسامة تعلو وجهك الصافي ، كانت الابتسامة تعلو وجه اللوحة لأول مرة .

الآن الابتسامة ابتسامة حقيقية تتحرك معها عضلات الوجه كحركة طبيعية تلقائية أشعر بها كحركة الزمن .

اخرجتني تلك اللوحة الأخيرة من الحالة التي كنت فيها وأرغمتني على أن أتأملها ثانية ، الوجه هو الوجه ، لون البشرة هو لون البشرة ، ووضعت ريشتي جانبا وأنا أمزج الألوان على (البالتة) لأضع الرتوش فوضعت قليلا من اللون الأحمر على الخد ، ووضعت ظلا للوجه ، مما زاد الصورة جمالا ، كان الوجه قمحي اللون والشعر أسمر .

الآن تذكرت فقد رأيتها من قبل في الحلم واليقظة بابتسامتها التلقائية ونظرت في عينيها وأحسست بما يدور داخل أعماقي ، أعماقها ، أعماقنا .

خرجت إلى الشارع وأنا أرفع وجهي لنسمة الفجر الباردة مع إحساسي بالراحة وقد سقطت الأقنعة التي كانت تخفي ذلك الوجة عني ، ومع نسمات الصباح كانت الطيور تسبح بحمد الله فسبحت معها وانتصر عقلي هذه المرة وأدركت أن حجم حياتي ليست هي عدد السنوات ، بل هي كلمة صدق تلقائية من بين آلاف الكلمات الضائعة عبر الزمن .

ارتعد جسدي وعلا صوتي فجأة ثم ارتعد صوتي فأمسكت قصاصة ورق صغيرة وكتبت عليها :

« إن الحياة لا تعطي الإنسان كل ما يتمناه ولكن عادة يكون هناك نقص في ناحية ما ، فنحن لا نعيش في جنة على الأرض ، والسعادة نسبية أساسها الشعور بالرضا وبالواقع الذي نعيشه مع محاولة تحسينه ذاتيا » .

ورجعت محموماً أرتعش فشربت كوبا من الشاى الساخن وكتبت على اللوحة إسما كان غائبا عنى لكنه الآن حقيقة ظهرت مع اللمسات الأخيرة .

جائتنى فى اليوم التالى ورأت الصورة فاندهشت ثم قالت :

- أهذه أنا ؟

- نعم .

- لكن الصورة أجمل منى ؟

- رؤية فنان .

- فنك يعجبنى .... وكم بهذا الفن ستخلدنى ؟

- سوف أضع تلك الصورة مع اللوحات السابقة فى معرضى القادم ، صورة تلقائية انسابت فيها الألوان .

ستكوننين أول من يدخل المعرض ليقف بجانبى .

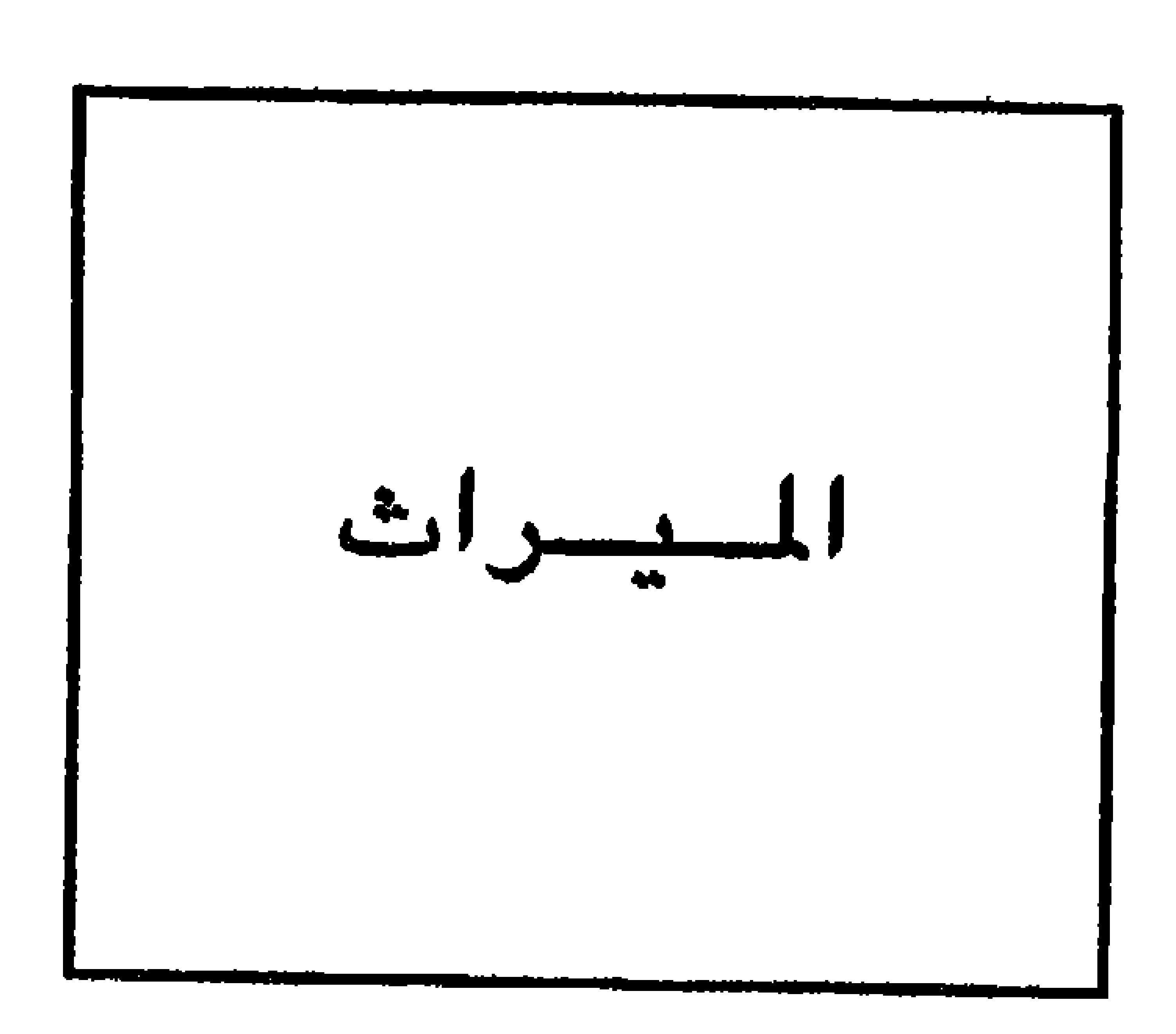
- صورتى تسبقنى !

- الصورة شئ والواقع شئ آخر .

كنا فى شهرسبتمبر ووقفت داخل المعرض ، كل من يراها ويرى اللوحة يقول :

- هذه ملهمته .

« إنها المرة الوحيدة التى لم أستخدم فيها (موديل) بل جاءت الصورة تلقائية واقعية مما جعل الناس يطلبون اقتنائها ، لكنى قلت لهم : كل اللوحات للبيع إلا هذه الصورة التى تحمل اللمسات الأخيرة .


الميراث

الميراث

أسير بشارع صفية زغلول فى ذهابى اليومى إلى عملى ، ولدى عودتى إلى محطة الترام بمحطة الرمل ، وقد لفت نظرى وقوف سيدة كل يوم فى شرفة بالدور الرابع ، ولا حظت أنها تصوب نظراتها نحوى ، تحيرت فى أمرها ، أشعر أنها من دمى .

مررت من هذا المكان فوقفت فجأة ، واستدرت لألتقط ورقة وقعت من الدور الرابع وعندما نظرت إلى أعلى وجدتها تقف فأسرعت الخطي ، وفى الطريق قرات الورقة (أنت من أعنى) .

عند عودتى وقفت عند شاطئ البحر وكانت أمواجه متلاطمة فحركت أشياء كامنة بداخلى ، تذكرت عنترة ودفاعه عن قبيلته ، وصلاح الدين الذى أعاد الحق الضائع .

مع نسمات الصباح الباردة وتغريد الطيور ، وجدتها أمامى ، التفتت نحوى ، نظرت إليها مبهوتا ، وإلى شفتيها المرتعشتين تريدان أن تقول شيئا ما ، وسقطت على خديها دمعتان مسحتهما خفية .

انتابنى الرعب ، تحيرت وابتعدت عنها قليلا ، ثم مضيت وأنا أتساءل : (أى امرأة أنت ؟ أى قلب يحمل فى طياته قهر السنين ؟) .

هدير البحر يتعالى والشمس بدأت تميل إلى الغروب ، وأنا وحدى أتذكر ما يدور من حولى ، وأتذكر قول الشاعر

ونديمى لفظى ، وفكرى أنيسى

وسرورى مائى ، وصبرى زادى

. واذا بيد تربت على كتفي بحنان أبوى ، نظرت فوجد ت شخصا غريبا لا أعرفه ينظر إلى كثيرا ، وهو يكرر بين الحينة والأخرى (أهلا برائحة الغالي) مات أبوك دو أن أراه ، لكنني أراك اليوم فيه ، من أنجب لم يمت . وقفت متجمدا يعتريني الخوف والخجل (من هذا الشخص ؟) ومد يده ببطاقة عليها اسمه وعنوانه وتليفونه وهو يقول : (أرجو أن أراك ففي عنقي دين لأبيك لابد أن أوفيه) وافترقنا .

مع التاريخ القديم أحب أن أعيش ، وأنا ارى هدير الأمواج التي تغسل كورنيش المدينة كل صباح ومساء ، فينطلق بصرى بعيدا باحثا عن خط لأفق ، رأيت السحب تسبح فى ماء البحر وكأنهما فى عناق ، والغيوم ليست دائمة ، ولكن يوجد القمر والنجوم ، وسيطرت على مشاعرى أشياء كثيرة ، الغربة والغريب الذى يبحث عن الأمان ، وسفرى وترحالى الدائم من أجل البحث عن الحقيقة .

ونظرت إلى القلعة وكأن التاريخ يفتح صفحاته لأقرأها وأضيف إليها كل جديد ، وكأنى طائر جريح ابتعدت عن تأملاتي لأكاشف نفسي وأقترب منها ليعرف كل منا الآخر .

أى بركان يغلى بداخلى ، وأى قهر يحمل الضياع ، لم أعرف من أنا ؟ ونظرات اليأس تطل من عينى ، رفعت رأسى كمن أفاق من حلم ونظرت حولى فلم أجد سواى في غرفتي وصوت المذياع ينبعث منه أغنية تصيب النفس بالغثيان .

وتساءلت : ليتنى أعرف ، ليتنى أعرف حل الألغاز ؟ وما وراء الكلمات (أنت من أعنى) .

كنت أقف أمام البحر متأملا وطائر النورس ينقض على الماء ، وفجأة وجدتها تقف بجانبى ، وهي تقول :

- عما تبحث ؟

- أبحث عن الحقيقة .

- أى حقيقة تقصد ؟

- حقائق كثيرة .

ثم نظرت إليها وغرقت حالما فى بحر عينيها .

قالت : الحقيقة بداخلك أنت .

ومضت كما جاءت فجأة وكأنها شبح يتعقبنى فى كل لحظة وفى أى مكان ، ومازلت فى حيرة من أمرها .

نتلاقى كلما سنحت الفرصة على المقهى ، أذيب بعضا من جليد الغربة بدفء علاقات الأصدقاء ، يجمعنا الأنتماء للوطن وحب الثقافة ، فى ذلك اليوم جلست فى زاوية قصية من المقهى صامتا ، شارد الذهن ، تصطرع بداخلى أفكار شتى ، دق جدار صمتى صديق قديم بسؤاله عما بى .

قالت : ضاق صدرى ، لم أعد أحتمل أكثر من هذا .

قال : وما سبب ذلك ؟

- امرأة تلاحقنى أينما ذهبت .

- كيف ؟

- تحاصرنى ، تطالبنى أن أعيد لها ميراثها الذى ورثته عن أجدادها ، وأى مكان أوجد فيه أجدها أمامى ، لقد أصبحت تعيش فى كل كيانى .

نظر إلىّ واحتسى قهوته ثم انصرف ...

وعدت لبنات أفكارى محاولا فك اللغز الى يحيرنى .

غرباء على الطريق

غرباء على الطريق

تتحرك كل نبضة من نبضاتهم ، يحملون قلوبهم فوق أكفهم ، يرتحلون من مكان إلى مكان ، يسيرون كالتائهين ، يبحثون عن شئ ، قد يكون لحظات سقطت أو كلمات خطت ، أو حياة ابتلعت بعضهم أو قذفت بهم إلى وسط أحد الميادين .

كل واحد منهم يمسك صرة ملابسه ، ساروا إلى المحطة ، كانت الشمس تتوهج على القضبان ، والرمال تحت أقدامهم متقدة ، والعرق يسيل على وجوههم بكثرة ، شعروا بالعطش ، يسيرون تحت وهج الشمس الملتهبة ، وحدهم فى الطريق الطويل والديزل قادم يجر عرباته المحملة بالمسافرين فينطلق بهم إلى بلاد بعيدة .

فى الميدان الكبير تتزاحم الأصوات متداخلة ، أبواق سيارات ، شرائط كاسيت ، دبيب خطوات ، هذا يصطدم بذاك ، أكتاف تتلامس وتتخبط فى بعضها البعض .

فى الصباح الباكر يقفون فى الميدان ، ملامحهم حزينة تعسة ، هالات السواد تظهر واضحة أسفل عيونهم ، يزعجك عبوسهم .

عندما يتقدم منهم أحد الرجال الذين يريدونهم يبتسمون رغما عنهم ، يشير إليهم فيلتفون حوله ، يشير إلى الرجال ، وإلى ذو الأبدان القوية خاصة ، يترك من ظهر عليه الكبر أو الإعياء ، فيرجع البعض دون عمل وربما دون قوت يومه .

فى الظهيرة يجلسون وقد فك كل واحد منهم صرته ليخرج رغيفا وقطعة من الجبن فيأكل وقت الراحة ثم يعودون إلى عملهم بلا كلل أو ضجر وتدور بهم الحياة دورتها .

المطر يهطل بغزارة ، السقف كله أصبح ينزف الماء ، أعماقة كانت منزوفة ، ففى بلدته أولاد ينتظرون ما يرسله لهم كل شهر ، وها هو لم يستطع توفير المبلغ المطلوب ، حتى الغطاء تبلل ونفذت البرودة تلسع عظامه ، شخص ببصره إلى السقف الذى يأويه والهم الذى يرزح فوق صدره ، وكيف ستكون ليلته ؟

قابله أحد الرجال الذين جاءوا معه ، سأله عن الحال ؟

قال صابر : لم أجد عملا هذه الأيام .

فقال عابد : سأبحث لك عن عمل معى .

- لم أتناول أى غذاء منذ يومين .

- هون عليك الأمر .

- المشكلة اننى لم أرسل لأولادى أى مبلغ هذا الشهر .

- سنتدبر الأمر .

- حتى الهواء النقى لم أعد أجده .

- عليك بالصبر .

- أريد كوبا من الماء فإن فى حلقى غصة ومرارة .

- هذا أمر ميسور .

- نلتقى غدا .

- بمشيئة الله ...

وافترقا

كان يسكن فى حجرة بسيطة سكنها بعد صعوبة بالغة ورغم الرطوبة ونزول الماء من السقف إلا أنه قال لنفسه (لا بأس بها) ... أعد كوبا من الشاى الأسود على موقد (السبرتو) وجلس يستدفئ ، ملامحه يكسوها الحزن فها هو غريب داخل الوطن .

أخذ يتحرك داخل الحجرة ذهابا وايابا ، تذكر بيته القديم ، ميراث أجداده ، رفع وجهه للسقف وقطرات الماء عالقة به بعد أن توقف المطر ، ترك البيت القديم لمن يبددونه .

قال لنفسه : (ضاعت السنين سدى ... والأبواب دائما مغلقة أمامى .. آه الأمس .. اليوم .. الغد ، ميراث الأجداد الضائع .. و....)

هزل جسد صابر وبدا عليه التوتر فقد استولى عليه اليأس وشل تفكيره فى اتخاذ القرار ، أخيرا قال يحدث نفسه : (لا مفر من البحث عن الرزق فى أرض الله الواسعة) لم تكن المرة الأولى التى تنتابه فيها تلك المشاعر ..

الغربة والسفر والترحال الدائم وأولاده .

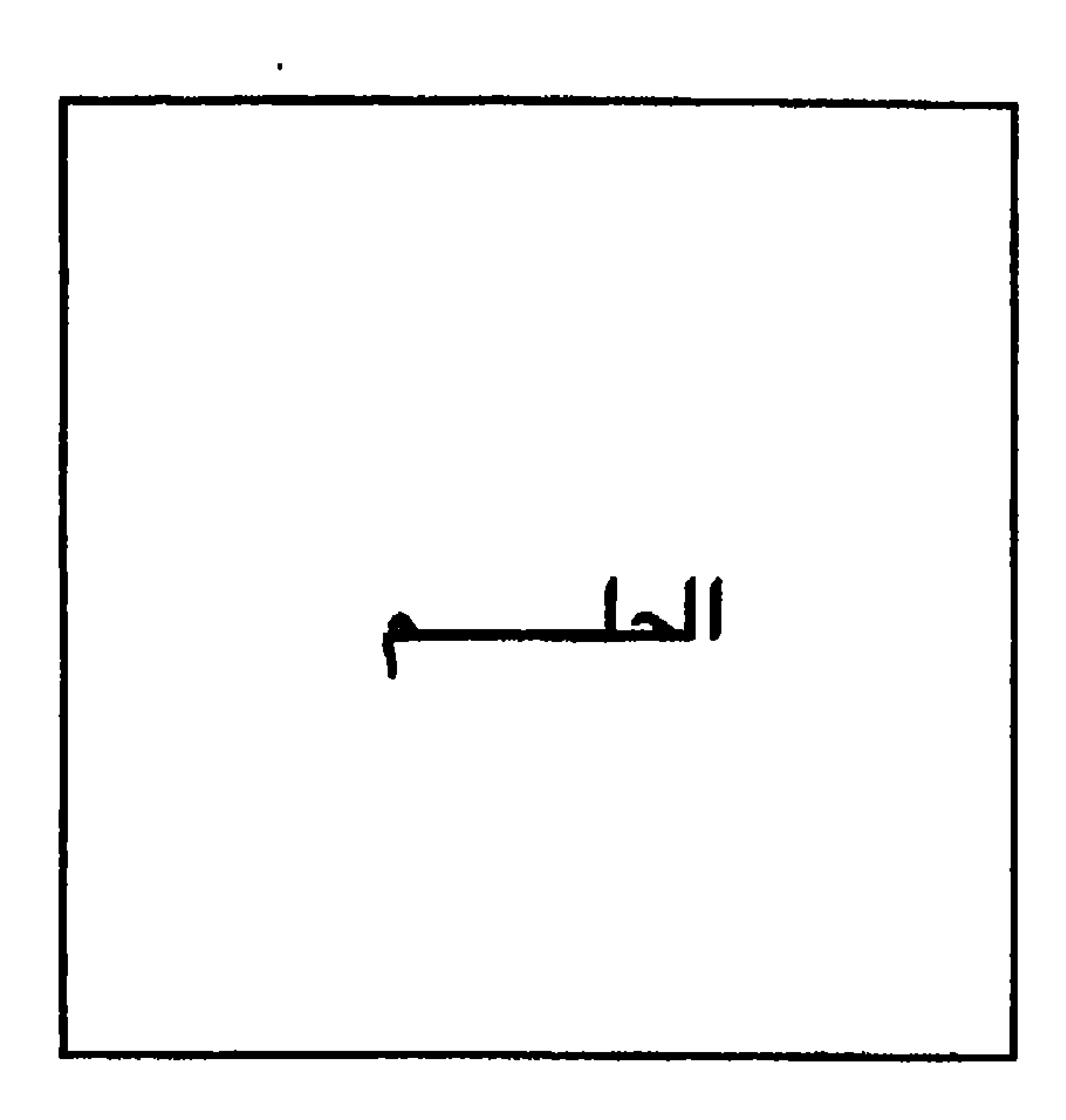
كان العرق يتصبب من جبينه والخوف يعتريه من المجهول ، أحس أنه يعيش فى زمن غير زمانه ، الجنيه أصبح لا يساوي قرش صاغ ، ورغم العمل الشاق المضنى فى حمل شكائر الأسمنت والطوب الأسمنتى على ظهره فها هو يعيش بصعوبة ، يوما يجد عملا ويوما يبحث عن العمل بلا فائدة ترجى ، حتى قدماه لم تعدا تساعدانه على الوقوف مدة طويلة بعد أن كسرت قدمه فى حادث ببلدته .

فى ذلك اليوم البعيد كان يحمل الطوب الأحمر ، حين كان النيل يفيض بالطمي ويصعد به إلى الأدوار العليا على (السقالة) وإذا بقدمه تنزلق فوقع عليها ووقع الطوب فوقه ونقل إلى المستشفى حيث وضعت قدمه فى الجبس ولم تعد لحالتها الطبيعية منذ ذلك اليوم .

تساءل : هل يظل يبحث عن رغيف العيش الأسمر وقطعة الجبن وتوفير بعض النقود ليرسلها لأولاده فى بلدته ؟ .

ظل هكذا فى حجرته شارد الذهن يفكر فربما يأتى الغد بجديد .

وجهه أصبح شاحبا فهو لا يأكل إلا ما يكفى حتى لا تنقطع أنفاسه ، ومازال أمله فى الهجرة سعيا وراء الرزق فى أرض الله الواسعة .



الحلـــــم

الحــــلم

كنت جميلة عشت طفولتى فى غرفة صغيرة لها نافذة وحيدة تطل على الجيران ، كنت أرتدى فستانا أبيض ، ألعب مع الأطفال ، نجرى فى الحارة الضيقة ، نلعب عريس وعروسة ، عسكر وحرامية ، وكثيرا من الألعاب الصبيانية .

أتذكر أن الغرفة كانت ضيقة ، الأثاث قديم ومصباح وحيد معلق فى السقف نوره ضعيف لكنى كنت سعيدة وسط الأهل .

عندما كبرت كنت أقف أمام المرآة أتأمل ملامح وجهى ، وبدأت أشعر بالتغير الذى شملنى ، أصبح الوجه مصقولا ناعما لامعا .

بدأت أحلم بالشموع التى تتراقص فى أيدى البنات ، والفستان الأبيض ، والفارس الذى سوف يأتى (كما أبو زيد الهلالى يعتلى فرسه) أقبل يامليكى ممتطيا جوادك الأبيض . لكن الانتظار طال حتى أصبح الوجه منطفئا ، ولمحت تحت عينى بصمات تركها الزمن .

تملكتنى مشاعر الحزن والكآبة بعد ممات أبى ، لم يخرجنى من تلك الحالة إلا الالتحاق بعمل بإحدى الوزارات ، رأيت الفتيات فى مثل سنى تزوجوا ولم يتقدم أحد للزواج منى .

كنت عندما يجن الليل أبكى ، تهرع أمى ، أسحب الغطاء فوقى لأدارى وجهى تدعو الله أن يرزقنى بزوج صالح .. أنام وأنا أحلم بالفارس الذى يمتطى فرسه .

تقرب منى زميل فى العمل ، كان من الريف ، يتحدث دائما عن الخضرة والأرض البكر الخصبة ، لكن راتبه صغير ، اتفقنا على أن نتعاون معا .

شعرت بإخلاصه لى ، ورفرف القلب فعدت إلى منزلى أصلى شكرا لله ، وأردد الآية الكريمة " وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِن حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ " .

منذ ذلك اليوم أحسست بصدقه وبالرغبة الأكيدة فى أن نعد عشا صغيرا يجمعنا ويلف أحلامنا كما الطير فى وكرها.

بعد عقد القران لم نترك أى مكان فى المدينة إلا وجلسنا فيه نتحدث عن أحلامنا ونبنى أمانينا ، لم يبخل على بشئ ونما الحب بيننا أكثر ، وكلما اقتربت منه وجدت معه الحنان الذى كنت أفتقده .

كانت الأحلام كبيرة والفرحة أكبر بداخلى ، لكن المسكن هو المشكلة التى تواجهنا واستطعنا بعد عناء أن نحصل على غرفة جمعتنا معا .

فى تلك الأيام تملكتنى الرغبة فى أن أستمتع بحياتى ، كنت جائعة لمتع الحياة فارتوينا منها بقدر .

ووجدت مع العشرة أن فى قلبى حبا ينمو لهذا الرجل الذى أصبح بالنسبة لى كل شئ .

عشت معه أجمل أيام حياتى ، نرتشف رحيق الحياة ويظللنا الحب ، وتتعانق الآمال والأحلام .

تمنيت لو أنجب ولدا يشاركنا السعادة ويملأ علينا حياتنا ويكون البسمة التى تنير قلوبنا ، ونرى معه طفولتنا ، ولم يمض كثيرا حتى حقق الله أمنيتى وسميته " عبد الرحمن " فى تلك اللحظة تمنيت لو عاشت أمى حتى ترى

حفيدها ، لكنى الآن وحيدة كنت غريبة في هذه الحياة كشجرة وحيدة لا أم ولا أب ، لكن الله عوضنى عنهما بحنان زوجى وحبى لوليدى الجديد .

وأراد الله أن يوسع فى رزقنا بعد مجئ وليدنا فجاءت لزوجى فرصة للعمل بالخارج وبدأ يعد أوراقه للسفر ، يخرج فى الصباح ويعود فى المساء ، حتى حانت اللحظة (غدا سوف أسافر) كلمة قالها كانت على سمعي ثقيلة ، لم ننم فى تلك الليلة قضيناها وفى داخل كل منا حلم كبير ، الشقة الكبيرة الواسعة والأثاث الفاخر ، مستقبل طفلنا ، وسافر على وعد أن يرسل لى دعوة بعد استقراره هناك ، وكانت معه دعواتي أن يكلل الله سعيه بالنجاح .

كنت أتصور أننى قادرة على العيش دون رجل بعد ما رحل وتركنى وحدى مع صورته والطفل الصغير ، والحلم ، تركنى أستسلم لبرد الوحشة والوحدة ، استرجع ما مضى ومرت الأيام ثقيلة مضنية ، غريبة .. أنا والنقود قليلة ومتاعب الحياة كثيرة ، تذكرت يوم زفافنا ، يوم نزع عنى خماري ، ثم تواريت وراء الستارة ، وخلعت ثوب الزفافالأبيض وارتديت قميصا جديدا .

وجاءت الدعوة فكنت كالغريق الذى يلتمس طوق النجاة ، جهزت أوراقى وفى نفسى اشتياقى ، ركبت الطائرة التى ارتفعت في السماء ، كانت أول مرة أركب فيها الطائرة وكانت تتملكنى رعشة الخوف ، لكن اشتياقى كان أشد لهذا اللقاء .. وحاولت الانشغال بالنظر من شباك الطائرة على الطبيعة ، كانت السحب كثيرة ، والأرض من تحتى مزارع وأنهار ، بقعة خضراء ، ورمال صفراء ، غيوم فى أحضان السماء ، وجبال فى أحضان السهول ، ما أشبه الطبيعة بالناس ، فالرغبة واحدة في التماسك والعناق ، والحلم بأن نشبع ونحب ونفرح وتمتد الأيدى بالحب .

وما زلت أذكر ذلك اللقاء الذى تم بينى وبينه ، عندما استقبلنى بكيت على صدره فضمنى إليه ، كما ضم (عبد الرحمن) وركبنا سيارته الفارهة التى وصلنا بها إلى بيتنا الجديد .

بهلول

وأحزان الشتاء

بهلول وأحزان الشتاء

بينما كنت جالسا ووجهي للبحر لمحت شخصا يرتدى بالطو سميكا ويجلس على أريكة بجوارى ، لحيته طويلة ، ملابسه رثة ، حاولت أن أتبين ملامحه ، إننى أعرفه نعم إنه بهلول ، ذلك المغرور الذى نشأ فى أحد بيوت الأعيان ، كان يعمل فى بيت عمدة القرية ، يزرع ويرعى الماشية ، وذات يوم اكتشفت إحدى زوجات العمدة ضياع سوار ذهبى ، وثارت الشبهات حوله ، وأثناء البحث عن السوار الذهبى عثروا عليه مدفونا فى الأرض التى يعمل بها ، ونال بهلول علقة ساخنة بكرباج العمدة وخفرائه ، وأبلغ العمدة المركز وتم ترحيله .

انقطعت أخبار بهلول عن القرية وانتهى به المصير ليعمل سجانا ، فأظهر من صنوف القسوة ما جعله موضع الرضا عند قادة السجن ، فترقى وأصبح له مكانة خاصة .

كان كرباجه ينال كل من دخل السجن ، لا يرحم أحدا ، عرفه كل مسجون ، وكان يتحاشى غضبه خوفا من كرباجه هو وأعوانه " ذوقوا بعضا مما عانيته منكم .. كنت عبدا ذليلا لكم .. واليوم كلكم تحت يدى .. أراكم أذلاء ضعفاء .. إشارة واحدة منى تجعل السياط تهوى على جلودكم .. وتترك آثارها حتى لا تنسوا بهلول .. " .

ما زلت أتأمل مياه البحر الزرقاء فى السماء وإشعاعات السفن الراسية فى الميناء ونظرت إلى الأعماق وصراع البقاء ، لكن يفنى الأحياء ويبقى البحر ساخرا ، شاهدا على هذا الصراع ، وكان السمك الكبير يأكل الصغير ورأيت الحيتان تنقض على فريستها تلتهمها التهاما .

استقبل بهلول العمدة الذى جاءه متهما فى قضية إيواء أحد أقربائه من الخارجين على القانون ، وأخذ يتخير لتعذيبه وقت الليل بعد أن يأوى المعتقلون إلى الزنازين وتهدأ الحركة داخل السجن ، فيستدعيه إلى ساحة السجن ويسلمه إلى أعوانه فيحيطون به كما تحيط الطيور الجارحة بفريستها ، ثم ينهالون عليه بالكرابيج وبهلول جالس يستمتع برؤية ذلك المنظر : " ما زالت كرابيجكم بأثارها تعلم فى جسدى .. لم ترحموا جسمى النحيل من سياطكم .. كنت قاسيا معى وكنت عبدا لك .. آه .. كلما تحسست جسدى استيقظت آلامى .. دعهم ينتزعون أظافرك وأنا جالس فقط أشير بيدى .. " ومع شدة التعذيب وقسوته لم يتحمل العمدة فأسلم الروح ، وفى ظلام الليل قام بهلول بلف الجثة داخل بطانية وحملها فى سيارة خرجت من بوابة السجن وتوقفت على مقربة منه ، على بعد خطوات عند الرمال وقام أعوانه بدفن الجثة ..

يدور الفنار بالأنوار فيحيل الظلام إلى نهار وتتلألأ المدينة كعروس تتزين للزفاف ، وانتهت خدمة بهلول فى السجن ، وحصل على مكافأة نهاية الخدمة ، فقام بفتح كشك صغير لبيع الصحف والمجلات والسجائر والحلويات ، وتزوج من فتاة كانت تعمل فى إحدى الشركات المجاورة له ، وتقدمت تجارته فأصبح الكشك دكانا ، وأصبح مشهورا بالصلاح والتقوى ، يؤدى الصلاة فى جماعة ويستفتيه الناس فى أمورهم ، فهو بين أهل الحى رجل صالح ، وكم كانت فرحته عندما أنجبت زوجته طفلا جميلا .

نظرت إلى ما وراء الغمام وما تخفيه الأيام ، كم تهاوت عروش وسقطت تيجان ، وخاب سعى العشاق ومضى الجميع إلى مثواهم الأخير ، الغنى والفقير ، وبقيت أمواج البحر تحكى قصة الإنسان على مر الزمان ، الصراع الدائم بين هابيل وقابيل .

طاف بهلول على السجون بحثا عن ابنه المفقود دون فائدة ، فقد نشأ الأبن متدينا ذا شخصية قوية وأخلاق حميدة ، وبعد أن نال الثانوية العامة التحق بكلية الحقوق وكان محبوبا بين زملائه ، لكنه ذات يوم خرج من البيت ولم يعد .

وعاد بهلول حزينا مغموما فقد أصبح مصير الابن مجهولا بالنسبة له .

غادر بهلول البيت لآخر مرة كما غادر القرية لآخر مرة حين ترك بيت العمدة وأخذ يهيم على وجهه فى الطرقات يهذى بكلمات غير مفهومة ويتفوه بعبارات غامضة ثم أخذ ينام فى المقابر ويتسكع على أبواب المساجد يستجدى الصدقات من الناس ويرتدى ثياب المجاذيب .

وفى شتاء هذا العام رأيته دوما فى المدينة ، فقد سافر إلى الأسكندرية بعد أن بلغ من السن عتيا وافترش أريكة بجوار البحر وجعل من السماء غطاء بعد ما افترش الحزن واشتعل الرأس شيبا ، وذات ليلة نزل إلى البحر وغاب عن الأنظار ، وثارت الأمواج وتلاطمت لتمحو آثار الأقدام من فوق الرمال ، وإذا بالسماء ترعد وينزل المطر ..

مقاطع من ليل الغربة والهجرة

مقاطع من ليل الغربة والهجرة

حين يجن الليل افترش الحزن ، والتحف الصبر ..

قالوا : (كم أنت طيب وصبور ، تتحمل كل ما يحيق بك ، دائما نرثي لحالك وأنت تسطر أسماء من يقطعون أوصالك ، وتجلس تبكى بلا فائدة ترجى) .

قلت : فأصبر صبرا جميلا .

أغادر الوطن بعد ما أصبح غريبا عني ، جريح أنا ، أدفع الثمن آلاما وأحزانا لم أستطع وقف ما ينزف بأعماقى ، أقف تائها ، حائرا ، عاجزا عن إيجاد الطقوس التى توصلنى إلى تلك البلاد التى خاصمتها الأفراح وكادت أن توقف نبضى .

افتح (الألبوم) باحثا عن صورة تفرحنى فأعجز عن ذلك ، لم يعد الأحباب هم الأحباب ، ولا الأهل هم الأهل .

لم أعد أعرف أحدا ، ولا أحد يعرفنى ، حتى الصور صارت باهتة وتغير لونها .

كلما حاولت فرد جناحى على امتدادهما عجزت ، رغم أنى أشعر بنبض عروقي وأوجاعى أحس بها لأنها لم تزل كما هى ، وما شكوت ولكن تفيض النفس عند امتلائها .

فى كل لحظة أصبح كل شئ يمتص دمى ، فالوطن ضاق بى ، ولم يعد الحلم يمتطى ولم تعد الأرض بكرا لأجد فيها ذاتي ، لذا قررت الرحيل تاركا ورائى من ينعم ويلهو على اتساع المدى .

حينما أغادرك ياوطنى فإن ما بيننا غرسا لا ينتزع ، فالدماء التى تجرى فى دمي من دمائك ، ورغم بعدى عنك إلا أننى أتحسس ترابك ، وأنام معك واحتسى الشاى الأسود ،

وأسهر معك أسامرك وتسامرنى ، وإذا ما فتح أحدنا دفتره سيجد صورتك برغم العواصف .

استهلكوك كثيرا ، مصوا دمك ، عاملوك كصبى مراهق ، غازلوك بكلمات رخيصة ، وناموا وتحت وسائدهم أحلام ساذجة تقتل فيك الحلم والآمال ، ونمت أنا بأحلام كبار ، لكن صخورهم حطمت كل شئ .

انتزعوك منى فهاجرت لأننى لم تعد تنطلى على حكاياتهم ، وامتطيت الحزن فى انتظار (الخضر) فربما يثقب السفينة لتمر بسلام .

ولم تزل يا وطنى جميلا كالبحر ، عذبا كالنهر ، أعانق فيك الآمال الكبار وأبحث عن أوراق بعثرتها الريح ربما تعيدنى إليك .

المحتويات

مسلسل		الصفحة
١	المـواجهـة	٥
٢	على رصيف الميناء	١١
٣	ترقـب	١٥
٤	الوجه الغائـب	٢١
٥	الصغيرة والبحر	٣١
٦	غريب على باب زويلة	٣٧
٧	الغرفة ٣١٠	٤٣
٨	أوراق اللعبة	٤٩
٩	حكاية من الزمن الماضى	٥٥
١٠	اللمسات الأخيرة	٦١
١١	الميـراث	٦٧
١٢	غرباء على الطريق	٧٣
١٣	الحـلم	٧٩
١٤	بهلول وأحزان الشتاء	٨٥
١٥	مقاطع من ليل الغربة والهجرة	٩١

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الإدارة
رمزى السيد شعبان

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية
٩٦٩٦ س ١٩٩٢ - ١٠٠٠

